لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء الثالث : تفسير الآيات ٢٥٧- ٢٦٠ من سورة البقرة

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره وهو أهل للثناء والحمد، ونستغفره وهو الغفور الرحيم، الرب الكريم، امتنّ على خلقه بمواسم الطاعات ليزدادوا إيمانًا، وأنزل عليهم القرآن فكان طريقهم للإيمان، وجعل الإيمان أعظم الأعمال، وسبّب أسباباً لزيادته، فهذه المنة العظيمة التي هي أعظم المنن الواجب علينا أن نعتني بها ونطلب زيادتها، ونستعيذ بالله من أسباب نقصها.

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ١-٣] الإيمان أعظم واجب كُلف به الإنسان، فهو حقّ الله عزّ وجل علىّ عباده، من حققه كان له الفوز والفلاح والنجاح، وكان له التمكين في الأرض، فكيف نغفل عن ذلك؟! من أخلّ به كان له الخسران المبين.

ولا فرق في الإيمان بين إنسان وإنسان ولا فرق بين الناس إلا على حسب الإيمان، كل الناس مطالبون بتحقيق الإيمان، وهذا الإيمان إذا حققته الأمّة، كتب لها التمكين في الأرض، وكتب لها النصر والعزة، وإن أخلّت به، كتب الله عليها الذلة والصغار ومحقها وسحقها، ولهذا من ذاق طعم الإيمان عرف حقيقة ما عليه الخلق اليوم.

والله عزّ وجلّ عرض علينا الإيمان في كتابه بطرق عدة، من أعظمها: أنه علّمنا عن أسمائه وصفاته وأفعاله، كما في آية الكرسي في سورة البقرة، ثم لما علمنا عن أسمائه وصفاته وأفعاله بيّن لنا أمرًا في غاية الأهمية وهو أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، لماذا لا إكراه في الدين -وهذه الآية أتت بعد آية الكرسي-؟ لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أي: من علم صفات الباري سبحانه وتعالى المذكورة في آية الكرسي، علم أن العاقل لا يحتاج إلى إكراه، بل يختار الدين الحقّ من غير تردّد، إذا عرف أسماء الله عزّ وجلّ وصفاته وآمَن بها.

في هذا السياق الله عزّ وجلّ يقول بعدما بيّن لنا كمال أسمائه وصفاته، وبعدما أعلمنا أنه لا إكراه في الدين يبيّن لنا سبحانه وتعالى كيف يعامل أهل الإيمان، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فهذه الآية العظيمة مترتبة على سابقتها، وهي بمثابة الثمرة، فمن آمن بالله وعرف أسماءه وصفاته سيكون وليًّا من أولياء الله، الله عزّ وجلّ يخرجه من الظلمات إلى النور.

وهذه الولاية غاية، الولاية غاية، إن ولاية الله للعبد صلاح لدينه ودنياه، وفلاح في شأنه كله، فالعباد عليهم أن يكونوا حريصين غاية الحرص على الأسباب التي توصلهم إلى ولاية الله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧ – ٢٦٠].

نقرأ في شرح هذه الآيات كلام الشيخ السعدي، يقول:

"﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ **وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولّوه فلا يبغون عنه بدلاً ولا يشركون به أحدًا**" فهم ابتدؤوه بالولاية .

"**قد اتخذوه حبيبًا ووليًّا، ووالوا أولياءه، وعادوا أعداءه**" فبدأ الأمر عندهم، فماذا فعل لهم لله؟ ننظر الآن إلى فعله:

"**فتولاهم بلطفه، ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم**" وما أعظمه من نور! وهذه النعمة العظيمة إذا تولّى العبد ربه وتعلّق به، ملأ قلبه إيماناً، وعلّمه، وأعانه على الطاعات.

"**وكان جزاؤهم على هذا أن سلّمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة، إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور**" فمن ذاق طعم النور هنا، نُوِّر له في قبره، ونُوِّر له في الحشر، ونُوِّر له يوم القيامة، فعلى هذا يكون الأمر كالتالي:

- اتخذ الله وليًّا، لا تبغِ عنه بدلاً ولا تشرك معه أحدًا، لا يتعلّق قلبك بغيره ولا يميل لأحد سواه، اتخذه وليًّا، والِ أولياءه وعادِ أعداءه ←
- الجزاء أن الله يتولاك بلطفه، يعاملك بلطفه، فيحسن إليك، ويمنّ عليك بإحسانه، ماذا ستكون النتيجة هنا؟ ←
- ستكون نور الإيمان والطاعة والعلم؛ أي: يعلمك يملأ قلبك إيمانًا، ويطاوعك بدنك للطاعة؛ أي: يعينك على الطاعة، **هذا في الدنيا**، إن تتولاه يتولاك، فإن تولاك ملأ قلبك إيمانًا وعلمًا وطاعة، وهذا نور العلم والإيمان والطاعة، **وفي الآخرة** في لحظة قبضك، سلمك من الظلمات، سواء ظلمات القبر أو الحشر والقيامة، فتنتقل إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور.

هذا لمن تولى ربه، فمن تولى ربه يخرجه من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، ينور قلوبهم بما يقذف فيها من نور الوحي والإيمان، ييسّر لهم اليسرى ويجنبهم العسرى، هذا لمن تولاه.

نأتي للصنف الثاني الذين سمعوا آيات الله وأسماءه وصفاته **ولكنهم أعرضوا:**

قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ انظروا إلى فعلهم: يخرجونهم من النور إلى الظلمات!

- هناك ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ كيف يعاملهم؟ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
- وهنا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ كيف يعاملونهم؟ ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

"فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوا من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم" هم ابتدؤوا الشأن، **تركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم**، مكَّن الشيطان منهم.

"فكانوا يؤزّونهم إلى المعاصي أزًّا، ويزعجونهم إلى الشرّ إزعاجًا"، وهذا فعلهم تسمع عن تفاصيله عجبًا عند من فَقَّهه الله وعلمه! وعند من تابع أحوال الناس ورأى شأن الأولياء ورأى شأن الأعداء.

فإنّ هذه الآية قاعدة عامة في معاملة الله لخلقه: (من تولى الله تولاه الله، ومن تولى عن الله ولاه الله أعداء).

فالله عزّ وجلّ يريد بالخلق اليسر، والأعداء يريدون بهم العسر، فإذا تولى الإنسان الله، حفظه وحماه، وإذا تولى الإنسان عن الله، تركه لحزب الشيطان فسلطهم عليهم عقوبة لهم، فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزا ويزعجونهم إلى الشرّ إزعاجًا، فالنتيجة:

"فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }" والله عزّ وجلّ ولاهم ما تولّوا وخذلهم ووكلهم إلى رعاية الشيطان وأوليائه، فأضلّوهم وأشقوهم وفضحوهم وكشفوا سترهم وثقلوا عليه العلم النافع والعمل الصالح وحرموهم السعادة، وتفاصيل هذا لا يُعد، تفاصيل هذا في الواقع لا يُعد، فإن ما ترى من أحوال الناس حال توليهم للشيطان أمر عظيم يشعرك بأن من غُشي على بصره وعلى قلبه وعلى سمعه إذا لم يكشف الله عنه فلا يستطيع أحد أن ينفعه!

ثم أنه سبحانه وتعالى بيّن لنا من أنواع تخبط الشيطان بالإنسان في الولاية كما حصل مع نبيه ورسوله وخليله إبراهيم في محاجته لذاك الذي تولى الشيطان.

وهذا نموذج عجيب تراه وترى أمثاله في الحياة، فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاج هذا الملك الجبار، وهو كما هو معروف في التفاسير قبابلي الذي كان معطلا منكرًا لربّ العالمين، فهو منكر لتوحيد الربوبية الذي هو أجلى الأمور وأوضحها، والسبب -كما هو مبيّن في الآيات- هو ما وهبه الله من مُلك.

فيقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهذا كما مر معنا سابقا في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ **من الكلمات التي علينا أن نعتني بها غاية العناية لما نقرأها في كتاب الله**، فإنك تلحظ أمرًا هنا، عليك أن ترى، هل رأيت الذي حاج إبراهيم؟ هل رأيته من نور البصيرة؟

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ يحاجه في الرب الذي ربوبيته أجلى الأمور وأوضحها ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ .

﴿آتَاهُ﴾ انظر إلى فعل الله، ﴿آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ فهل هذا ردّ من أعطاه الله؟! وإن كان الله عزّ وجلّ أعطى هذا الملك في الدنيا فقد أعطى إبراهيم الخليل العلم اليقيني ما لم يعط أحدًا من الرسل سوى محمد صلى الله عليه وسلم، إبراهيم صلى الله عليه وسلم أوتي من العلم واليقين ما يحاجج به هذا الملك المسكين الذي تولى عدوه فخاب سعيه وذهب ملكه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ هذا ردّه على فعل الله ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

"يقول تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) أي: إلى جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك" فمن عرف الله بأسمائه وصفاته كما في آية الكرسي، ودخل إلى قلبه نور

الإيمان لأنه تولى الله، لا يمكن أن يكون هذا حاله، فهذا متجاهل لكمال صفات الله، معاند، يحاج فيما لا يقبل التشكيك، ما الذي يحمله على ذلك؟

"وما حمله على ذلك إلا (أن آتاه الله الملك) فطغى وبغى ورأى نفسه مترئسا على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله" والسبب أن من لم يعرف الله بأسمائه وصفاته، ولم يعرف نفسه بضعفها سيغتر بعطية الله، من لم يدخل النور إلى قلبه، نور العلم والإيمان والطاعة سيكون هذا حاله، فماذا قال له إبراهيم عليه السلام؟

قال له: ربي الذي يحيي ويميت، أي هو المتفرد بأنواع التصرف، وخص منهما الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة" هو يدعي أنه الإله وينكر ربوبية الله، ويدعي أن له أفعالا مثل أفعال الله، فلما وُصف الله بالكمال بذل جهده أن يصف نفسه بالكمال، ولما حاجه إبراهيم بأفعال الله والتي أعظمها مشاهدة ورؤية الإحياء والإماتة، حاجه بأنه هو أيضا يحيي ويميت!

"فقال ذلك المحاج: (أنا أحيي وأميت) ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه" انظر الآن إلى فعل إبراهيم عليه السلام وكيف العلم واليقين يفعلان بصاحبهما، **"لما رأى إبراهيم الرجل يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة، أي شيء لا يشتبه على أحد، اطرد معه في الدليل"**، وهذا ليس لأنه لا يستطيع أن يرد على دليله، لا، ليس الأمر كذلك، ولكن هذا جواب أحمق، لأنه جواب لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم؛ لأن إبراهيم عليه السلام أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له ربي الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل أنت تقدر على ذلك؟ لبُهت، لكن الرجل أعمى، فانتقل معه إلى حجة أخرى أوضح منها ليظهر عجزه، ولكي لا يخرج منها بمخرج، لا يكابر ولا يشاغب ولا يلبس على العوام على أنه عنده كلاما يستطيع أن يقوله.

ماذا قال له في هذه الحجة؟ قال: فإن الله -أي من أفعاله- يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت صادقا فأت بها من المغرب.

"فقال إبراهيم: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق) أي: عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر (فأت بها من المغرب) وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه" هو يقول أنا فعلي مثل فعل الله -تعالى الله عما يقولون-، قال له: ربي الذي يحيي ويميت، فقال: أنا أحيي وأميت، قال له: انظر من أفعال الله أنه يأتي بالشمس من المشرق فأنت افعل ما يضاده وأتِ بها من المغرب.

"فلما قال له أمرًا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله (بهت الذي كفر) أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال الله تعالى: (والله لا يهدي القوم الظالمين)" أي: لا يهديهم حجة ولا يهديهم علمًا، إنما بسبب ظلمهم يتوهوا، الله سبحانه وتعالى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، لكن يخرج أولياءه الذين لا يتكبرون إنما يبحثون ويسألون ويريدون أن يتعلمون.

"بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه" فلو كان قصدهم الحق والهداية، لهداهم إليه، ويسّر لهم أسباب الوصول إليه يقينًا، يقينًا من يريد الهداية يسبّب الله له أسبابها، ولكن من أعرض، أعرض الله عنه.

"ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير" ومن ظنّ نفسه أنه يفعل مثل فعل الله فقد حكم على نفسه بالضلال وبعدم الهداية أبدا، وبالظلم العظيم.

والآية من لوازمها: "ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال".

لماذا تتوكل عليه في جميع الأحوال وننيب إليه ونعود؟ لأنه هو الرب المدبر فكيف لا نعتمد عليه؟! ولا نحسن الظن فيه؟! وتتعلق قلوبنا بغيره؟! وننخدع بتمكيننا في الأرض ننخدع في شيء نستطيع فعله؛لأن الله أقدرنا عليه وسلطنا عليه!

"قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان

استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له ربا قادرا قاهرا متصرفا فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلها حتى يتخذ الصنم على صورته، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. (من مفتاح دار السعادة)".

المقصود أن الآية تحمل ردًّا على من اعتقد ربوبية الكواكب أو استحقاقها للألوهية لأن الآية أظهرت تسخير الله لهذه الكواكب والتي من أعظمها الشمس.

تأتي الآيات التي بعدها أيضا دليل، يقول الشيخ: **"وهذا أيضا دليل آخر على توحد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء"** وهذا كله مناسب لآية الكرسي وما أتى بعدها أنه لا إكراه في الدين.

اسمع وتعلم عن الله وتعرف على صفاته وعلى أفعاله، ستجد أنه لا إكراه في الدين، لكن الفرق أن هناك قوم بذلوا جهدهم في ولاية الله وتعلقت قلوبهم في رضاه، فنوّر قلوبهم بالعلم والإيمان والطاعة، ونور قبورهم ومحشرهم وقيامتهم بالنور، فانظر إلى أفعاله التي بها يربي عباده ويعلمهم، وانظر إلى شأن هذا الذي مر على قرية.

يقول الله عزّ وجلّ: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} أي: ألم تر إليه كيف هداه الله و أخرجه من ظلمة الاشتباه إلى النور، فلننظر إلى هذه الآية التي جعلها الله آية للناس..

"{أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها} أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبا و (قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها) استبعادا لذلك وجهلا بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيرا أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب" ماذا قال؟ {قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها} استبعادا لذلك، استبعادًا لأي شيء؟ استبعادًا لإحيائها و{أنّى} هنا بمعنى متى يحيي الله؟ أو كيف يحيي الله؟ فهو يستبعد إحياؤها.

{أنّى} إما بمعنى متى أو كيف. وهذه كلها مشتركة فيها للاستبعاد، استبعادًا لذلك وجهلًا بقدرة الله تعالى.

فلما أراد الله به خيرًا، وهذا من إخراج الناس من الظلمات إلى النور ما داموا ليسوا بمكابرين، ما دام الإنسان لا يكابر، الله يربّيه ويعلمه، فلما أراد الله به خيرًا أراه آية في نفسه وماله، وكان معه طعام وشراب، هو وحماره وطعامه وشرابه.

"{فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} استقصارا لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه" فلما استيقظ عاد لحاله تمامًا قبل الموت، **وكان عهد حاله قبل موته،**

فقيل له بيانا للحقيقة: **{بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه} أي لم يتغير،** لم تغيره السنون، مرت عليه السنون ولم تغيره، **بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه .**

ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا".

ويقال أنه كان معه تين و عصير وهو مما يسرع إليه الفساد، أيًّا كان المهم أن هناك فارقًا بين الطعام وبين الآدمي، فترى أن الطعام أسرع من أي شيء آخر للفساد.

(وانظر إلى حمارك) وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتشرت عظامه، وتفرقت أوصاله (ولنجعلك آية للناس) على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجا محسوسا مشاهدا بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل.

(وانظر إلى العظام كيف ننشزها) أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض (ثم نكسوها لحما) فنظر إليها عيانا كما وصفها الله تعالى.

(فلما تبين له) ذلك وعلم قدرة الله تعالى (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير)".

وهذا الاعتراف من نعمة الله عزّ وجلّ على العبد أن يصل إليه يقينًا، وهذا دليل على أن الله يربي عباده، فإذا وقع في قلوبهم ظنونًا أزالها بما يمرّ عليهم من تربيته، فله الحمد كثيرًا وله الشكر كثيرًا على عنايته ورعايته بخلقه، وعلى تربيتهم وعلى إرادته بهم الخير.

وأن هذه الآية كالعماد في بيان تربية الله لخلقه، فإنه لا يترك الخلق على حالهم، بل يربيهم بآيات تدور حولهم وأحوال تخصهم أو تعم الناس، بحيث يزدادوا إيمانًا، إذا كانوا صادقين يريدون الحق ما يتركهم الله في الشك، بل تمرّ عليهم من الأحوال ما تفيدهم وترفع مقامهم، شرطًا ألا يكونوا مستكبرين وعن ولاية الله معرضين، بل يكونوا مقبلين، حتى إن لم يكونوا من أهل اليقين، ولكنهم مقبلون يريدون الله يريدون رضاه، فتراه يربيهم وينقلهم من النقص إلى التمام، سبحان من هذه آثار رحمته وآثار تربيته!

"والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرا، وأن يجعله آية ودليلا للناس"

والشيخ عنده ثلاثة أوجه تدل على هذا الاختيار أنه رجل وقع فنجاه الله بما أراه:

أحدها: أنّا يحيي الله بعد موتها، يقول: فلو كان نبيا أو عبدا لم يقل ذلك.

"والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله.

والثالث: في قوله: (فلما تبين له) أي: تبين له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم".

ثم نأتي إلى دليل ثالث وموقف عظيم من مواقف إبراهيم عليه السلام، مر معنا في المحاجة موقف عظيم من مواقف إبراهيم عليه السلام وهو ثباته ورسوخه في عقيدته ومحاجته لأهل الشرك، فالتوحيد أبين ما يكون لإبراهيم عليه السلام، وكذلك هو لأتباعه.

فمن كان إبراهيم عليه السلام قدوته، كان التوحيد من اهتماماته ومسؤولياته.

يتعلم عن الله أسماءه وصفاته وأفعاله، وينشرها بين الخلق، ويحاج المكابرين المعاندين، أما إبراهيم عليه السلام فلم يدخل في قلبه شك، ولا تُفهم الآية التي سنقرؤها الآن على أنها شك، بل سنفهم معناها ويتبين لنا إن شاء الله حقيقتها.

في الآيات موقف لإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

يقول الشيخ: "**وهذا فيه أيضا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى؛ لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى**، أما الإيمان بالغيب فهو موجود والإيمان بأن الله عز وجل يحيي الموتى فهو موجود، **ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: {أولم تؤمن } وهذا ليزيل الشبهة عن خليله وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان**" إذن سأله من أجل أن يزيل الشبهة عن خليله، قال له: {أولم تؤمن} أي هل هذا طلب من يريد دليلا من أجل أن يؤمني؟

فرد إبراهيم عليه السلام {بلى} قد آمنت أنك على كل شيء قدير وأنك تحيي الموتى وأنك تجازي العباد ولكن يريد أن يصل إلى مرتبة عين اليقين، فأجابه الله كرامة له ورحمة بالعباد من أجل أن يزيدهم يقينا، وهذه خاصة بالأولياء، بعد أن يقبلوا و يؤمنوا ويعتنوا ترى معاملة الله عزّ وجلّ لهم فيزيدهم يقينًا

فاجتمع دليل العيان (أنه رأى بعينه) إلى دليل الإيمان.

ويجب أن نعتقد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًّا بإحياء الموتى، ولكن الخبر ليس كالمعاينة، فارتفع الإيمان بالمعاينة، ومن استدل بدليل نحن أحق بالشك من إبراهيم، فالحديث مبني على نفي الشك عن

إبراهيم وليس إثباته، معناه: أنه لو كان شاكا لَكُنا نحن أحق به، أي لو كان إبراهيم شاكًّا كان الرسول أحق بالشك، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يشك فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك.

وهذا مثل قوله تعالى في سورة يونس حيث يخاطب نبيه فيقول: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ من قبلك﴾ [يونس : ٩٤] فيه دلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك، وإنما هذا الخطاب إنما يراد به النفي وليس الإثبات وهذا الكلام لا يقوله إلا من لا يعرف مكانة الأنبياء، وفيما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لست في شك ولا أسال.

فالمقصود مرة أخرى: لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))، فمعناه: أنه لو كان شاكّا لَكُنا نحن أحق به –يعني أحق بالشك– ((ونحن لا نشك)) –أي: النبي صلى الله عليه وسلم لا يشك– ((فإبراهيم أحرى أن لا يشك)) أمر ضروري أن يكون متبين لنا هذا ونعتقد في إبراهيم ما يجب اعتقاده.

ونفهم من الآية أمر عظيم أن توارد الأدلة اليقينية مما يزيد اليقين، فأنت لما تكون مؤمنًا بالله زد تفكرًا وتأملًا وزد بحثًا وتفكرًا في آياته وملاحظة لأفعاله يزيد يقينك، وطلبك لزيادة اليقين لا يدل على شكك أبدًا .

"فقال له ربه (فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك". وتنتفع من الدليل أنت وينتفع من الدليل غيرك، هو سأل (كيف تحيي؟) فهذا ليس سؤال شك، إنما سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود والسائل يقول: كيف يحصل كذا؟ أنت مؤمن أن الشيء حاصل، وأنت مؤمن بحصوله، وأنت تسأل عن (كيف)

(ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء (ثم ادعهن يأتينك سعيا) أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله:{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

ثم قال: (واعلم أن الله عزيز حكيم) أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئا عبثا".

سبحانه وتعالى عما يصفه به الواصفون، وما أعظم كمال صفاته.

وما أعظم سيرة إبراهيم عليه السلام وما أعظم الاقتداء به والسير على سيره.

اللهم احشرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أنبيائك ورسلك الذين اصطفيتهم على الخلق وذكرت لنا من قصصهم ما آمنا بها، اللهم زدنا إيمانًا بإيماننا برسلك وزدنا يقينًا وثبتنا على الحق واقبل منا أعمالنا اللهم آمين.